الطقس الديني والضبط الاجتماعي

أ. بن عامر كريمة،

قسم علم الاجتماع،

المركز الجامعي معسكر

Résumé:

Le présent Travail présente le phénomène religieux comme un phénomène social et culturel. Ce dernier est certainement lié a la dynamique psychique des individus, a leurs besoins et leurs motivations puisque la religion a toujours visé et vise encore la satisfaction d'un besoin de régulation des tensions internes chez l'homme en proie à l'angoisse

existentielle. mais il est impératif de relève, une autre dimension du phénomène religieux qui est celle de ses déterminations sociales et culturelles. Cela dit, nous nous sommes concentrée dans cette étude sur le rite religieux comme expression symbolique de pensée et de sentiments au moyen de l'action pour expliquer sa fonction comme régulateur social et moral.

ملخص:

اهتمت هذه المداخلة بالظاهرة الدينية كظاهرة اجتماعية و ثقافية . من المعروف أن الدين مرتبط ارتباطا وثيقا بالديناميكية النفسية للأفراد، بحاجاتهم العاطفية و حوافزهم ... لقد كان دائما ولا يزال أداة لضبط و احتواء حالات القلق الوجودي التي يتخبط فيها الإنسان. لكن هذا لا يجب أن ينسينا بعدا آخر للدين لا يقل أهمية عن البعد الأول حتى ولو لم يشعر به إلا القليل من الناس يعني الوعي به كمحدد اجتماعي و ثقافي .

زيادة على هذا لقد ركزنا على الجانب الطقوسي منه و حاولنا أن نفسر عبر مختلف الوظائف التي يؤديها كيف يكون الطقس الديني ضابطا اجتماعيا و أخلاقيا.

مقدمة:

انطلاقا من فكرة أن الدين ظاهرة إنسانية تماما يعاد إحياؤه باستمرار عبر التاريخ و تنوع الثقافات سنركز في هذا العمل على المدخل القائل بالتدين أكثر من ذلك القائل بالدين المؤسسي و العقائدي.

فالدين لدى جميع المجتمعات، هو المولد الأول للنظام الأخلاقي و النظام الاجتماعي.

فمن خلاله تتم عملية انتقال المعرفة الخاصة بهذا الكون. بالبشر، بمكانة الإنسان في العالم، بما عليه وما يجب عليه أن يتركه أو يتفادى التقرب منه لكن لنتريث قليل عند هذا الإنسان الذي نتكلم عنه اليوم، يعني الإنسان الحديث و ننظر إليه جيدا : انه "إنسان ضجر، غير مبال اتجاه كل الأشياء لكنه يهتم بكل شيء ، فردي و ميال للجماعة، حركي و شاره، ضال مثل الغريب في عالم اجتماعي حيث كل المضامين تصبح نسبوية عبر إضفاء الطابع الكمي عليها.

إنسان يحقق تنشئته الاجتماعية عبر أشكال عديدة، لكنه لا يختزل نفسه إلى أي منها لأنه يتصف دائما بأنه اجتماعي ولا اجتماعي في نفس الوقت ... _ هذا الفرد – غير قابل للتعيين أو التحديد بمكان ثابت .كما أن الانتماءات المتعددة أصبحت أكثر فأكثر ممكنة بجانب أن التنشئة الاجتماعية التي يتم اختيارها تتزايد على حساب الانتماءات التقليدية." (P.Martuccelli, 1999 : 375) .فبإمكان الدين إذن إشباع بعض حاجات الإنسان الملحة جدا ربما أهمها تموقع هذا الأخير في العالم يعني استيعاب مكانته و هدفه من هذه الحياة، كيفية الحيازة على القوة و الثقة بالنفس و الحكمة الكافية ليعرف محله من الأجيال السابقة و ليشارك في نقل هذا الموروث، وهذه المعرفة الدينية إلى الأجيال ا لتي تأتي.

إن المسألة هنا ،هي مسألة معنى يسعى الإنسان أن يعطيه لحياته عبر الدين لذا علينا أن ننظر إلى هذا الأخير كنسيج من العلاقات التي تربط بين أعضاء المجموعة الواحدة و أكثر من ذلك انه السند الذي يقوم عليه كل التساؤلات الوجودية لدى الإنسان حول ذاته، حول العالم و خصوصا حول مكانه في هذا العالم . من الطبيعي أن تحريات الإنسان الأولى و إستكشافاته كانت تتعلق بجسده، فهذا الأخير كان ولا يزال أكثر ميدان يتطلب البحث و يثير التساؤلات . دائما حاول الإنسان إيجاد طرق جديدة يكتشف من خلالها جدوى الجهد و السبل التي تمكنه من تجاوز هذه الجدوى في مختلف الحالات و الظروف و عبر كل مراحل حياته.

تساءل حول تحول جسده، نهايته، مصيره بعد الموت. تلك الموت التي اعتبرت دائما الذي القوة الدافعية لتطور كل الديانات(M.Weber, 1996: 75)

لقد احتاج هذا الإنسان دائما إلى الدين لكي" يخفف من عدم الإتحاد بين رغباته وإشباعها، و بين ذلك الذي عليه أن يفعله و بين ما يفعله بالفعل، بين مفهومه المثالي عن العالم وبين الواقع "(ج. زيمل، الدين: 133) و ذلك حتى "لا يترك وجوده الشخصي يسقط في تمزق غير قابل للشفاء ".

تساءل الإنسان كذلك بخصوص العالم الخارجي، عالم العلاقات بين البشر والقيم والمعايير المرتبطة بالطريقة التي تنسج من خلالها تلك العلاقات سواء تعلق الأمر بالعلاقات الاجتماعية، أي الصلات الموجودة بين الناس أو تلك القوة العلية السامية التي تحمل الأديان التوحيدية اسم " اللّه" Dieu والتي تعتبر المنبع الأول لكل حياة ووجودها مستقل عن كل وجود، قادرة على توليد رؤية خاصة بالوجود الإنساني تنبع من نظام تفسيري خاص بدوره في العالم.

هذه التساؤلات المختلفة التي أضمرها الإنسان ولا يزال مع بعض الاختلافات طبعا، والتي أوجدت الدين، أنتجت ممارسات خاصة بكل دين و بشكل أدق بكل ثقافة دينية.

تكمن هذه الممارسات في التعبد، الصلاة، التأمل. والتفاني في ممارسة إحدى هذه الأشكال يمن الإنسان المؤمن بتجارب لا مثيل لها.

للأديان جميعا قاسما مشتركا، كلها توجد مذاهب و عقائد كفيلة بتلبية حاجيات الفاعلين الاجتماعيين الوقتية(الآنية) والماورائية أي المستقبلية وبصفة أدق ما بعد الموت .

هذه العقائد تكون منظمة بطريقة "موضوعية"، يتقاسمها أعضاء المجموعة المؤسسة و يحافظون عليها في شكلها ومضمونها اللذان عرفوها عليه. أما نقل وتلقين المعارف الدينية التي تحتويها فتكون بطرق رمزية، شفهية أو كتابية.

كل هذا يؤدي إلى التعريف الدوركايمي للمجتمع الذي يعتبر قبل كل شيء "مجموعة من الأفكار و المعتقدات، المشاعر من كل نوع و التي تتحقق بواسطة الأفراد، وفي المحل الأول من هذه الأفكار توجد فكرة الأخلاق المثالية التي هي السبب الرئيسي لوجود المجتمع" (E. Durkheim 1924 : 79) ومن ثم يكون تساؤلنا حول الإسلام كدين وفي نفس الوقت كضابط اجتماعي.

<u>الإسلام والنظام الاجتماعي:</u>

يتفق الفقهاء على أن الإسلام هو مجموعة من العقائد والطقوس هو أخلاق وممارسة اجتماعية أو بالأحرى كما يحب الكثير أن يلخصوه في "العبادات"

و"المعاملات" وبصفة أوضح يعتبر دينا ودنيا في جولتهما بين أطراف الفكر الإسلامي، ، بقول بوعمران ولويس غارديه أنه "في الإسلام، الأخلاق والدين مرتبطان جدا" (Bouamrane et L. Gardet.1984 :177) ولعل الحديث النبوي الذي يرويه أنس والذي محتواه أن المعاملة الطيبة هي نصف الدين لدليل على ذلك فالعقل والوحي في الإسلام يتفقان ويجتمعان على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن من ينظر إلى الإسلام، عليه أن لا يهمل بعدية المؤسسين لكل الطروحات التي جاء بها. هذان البعدان منفصلان و مرتبطان في نفس الوقت . إن العلاقة الجدلية التي تربط ما هو الهي، مقدس، روحي وما هو إنساني، أرضي، دنيوي، عملي في الإسلام أثارت فضول العديد من الباحثين ولربما شكلت "حالة شاذة" في طرح بعض علماء الاجتماع الديني اللذين يفضلون تماما ما بين " المقدس و الدنيوي " (E. Durkheim, Les formes…) هذه الخصوصية في العلاقة بين المقدس والدنيوي أو بالأحرى هذا الارتباط الوثيق بين السماوي والأرضي هي التي جعلت البعض ينظرون إلى الإسلام كدين شمولي توتاليتاري (H Hasquin1986.) كما يقول إرنست رينان في محاضرته الشهيرة التي أجراها في جامعة السربون عام 1883 والتي تحمل عنوان " الإسلاموية و العلم ": " الإسلام هو الإتحاد التام بين الروحي والوقتي، إنه مملكة الدوغما....."(H. Hasquin1986 : 76).

هذا الطرح يبرز جيدا فكرة أن الإنسان في الإسلام، على الأقل على المستوى النظري، خلق ليعبد الله " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني"....والآية هذه تستعمل غالبا للإجابة عن الأسئلة الوجودية التي يطرحها المؤمن على نفسه والتي تتمثل في سبب وجوده على هذه الأرض ودوره فيها.

وهذا الدور ليس فقط على الصعيد الشخصي والفردي بل كذلك ولربما الأهم على الصعيد الاجتماعي .فحياة الإنسان المسلم، كما يقول لويس غارديه، " سواء عائلية، اجتماعية سياسية أو دينية، يحركها الإسلام وتخترقها في أدق تفاصيلها." (T. Gaid, 1991).

ليس هناك بالنسبة للكثيرين عالم المثل وعالم الواقع، بل هناك عالمان مرتبطان، متداخلان ومتلازمان يعيشهما الإنسان كوحدة فكرية عقائدية وطقوسية. فمجيء الإسلام كدين، و" عمل النبي، إنما –كان- في تأسيس هذه الجماعة (أي المجتمع الإسلامي) لكي يدخل المطلق في الوجود البشري. أما انتشاره فمن عمل الفتوحات وديناميةالتاريخ "(هشام جعيط، 2007: 46).من المفروض أن حياة المسلم تسبح في المقدس، الكل يرجع إلى الله، وكل شيء يقع ويقال باسمه، والكون بكامله شاهد على حضوره الكلي فلإسلام بهذا المعنى، أي بشقيه الإيماني الاعتقادي والعملي الأخلاقي الاجتماعي أو بعبارة أخرى كعبادات ومعاملات " ليس فقط مجموعة من المعتقدات والطقوس الدينية. – إنما- هو نظام يشمل طريقة التفكير العادات، الأخلاق، التقاليد السلوكات الاجتماعية لدى الأفراد"

فالدين إذن يدخل في مجال الثقافة بالمعنى الأعم لكونه يأتي بأفكار ومعتقدات، وهو منغرس بالضرورة في الوسط الذي نبع منه و يتجه إلى تغيير أسس الثقافة " كبنية عامة مركزة على مؤسسات حياتية تندس في أعماق المجتمع والدين من أهم هذه المؤسسات " (هشام جعيط، 2007: 43) .كل هذا يجعل الباحث يتريث في تعريفه لمفهوم الدين الإسلامي إذ أن هذا الأخير يتعدى ثنائية الاعتقاد والممارسة الدينيين ليكون بالإضافة إلى ذلك نظام حياة و رؤية للعالم ونسق فكري وتكون حياة الإنسان المسلم من ثم مفعمة و محاطة به من جميع الجوانب الفكرية منها والممارستية فمسألة المقدس أو الدين والدنيوي، علينا والعلاقة الموجودة بينهما تتطلب منا زيادة على الكثير من الحذر،أن ننظر إليها نظرة خاصة يتسع لها المكان هنا لكن على الأقل ننبه إلى أن المفهومين نسبيين، تختلف معانيهما من ثقافة إلى أخرى ومن دين لآخر ولهذا نركز هنا على أن الطقس الديني في الإسلام زيادة على كونه يكرس العقيدة الدينية الإسلامية فهو يعتبر الأداة التي من خلالها تكون العلاقات الاجتماعية الطيبة ممكنة والمكبح لكل فعل يخرج عن إطار المعاملات والأخلاق المتعارف عليها و لعل النص القرآني التالي أحسن مثال على ذلك : "اللذين

إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة " " يا أيها اللذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون " (سورة الحج 77.)

الطقس الديني ووظائفه الاجتماعية:

تظهر تعبيرية الدين في الصور و الرموز المتجذرة في عمق المتخيل الجمعي لتظهر بألوان متعددة داخل الفعل الطقوسي ومحاولة هذا البحث تكمن في الكشف على الاجتماعي في الطقوسي الديني بوصفه المجال الذي يتحول فيه المقدس إلى معيش. يتساءل دوركايم، في كتابه الأشكال الأولية للحياة الدينية ،كيف وجد الطقس؟ على ماذا يحتوي ؟ وخصوصا إلى ماذا يرمي؟ كما يندهش كيف جاءت الفكرة وارتبط و تشبث بها الناس و ينتهي إلى فكرة أننا كي نتمكن من رؤية شيء آخر في الطقس غير الوهم والجنون، يعني كي نتمكن من الإيمان بفعالية الطقس علينا أن نعي جيدا قدرة هذا الأخير على إعادة خلق دوري لكائن أخلاقي نحس جميعا بالتبعية نحوه كما يحس بالتبعية نحونا.هذا الكائن هو المجتمع (Durkheim ,1924 :496) .فالمحافظة على الرباط الاجتماعي تكون المنبع و الهدف في نفس الوقت للطقوسية. فجميع الأديان و خصوصا الأقرب منا تاريخا ألا وهي الديانات التوحيدية تعمل على تكريس دور الطقوس في حياة الأفراد و الجماعات ولا ترى حياة المؤمنين إلا معا في تلاحم و انسجام .

لطقوس الجماعة أهمية قصوى في المحافظة على توازن الحياة بكل مكوناتها وفي إدماج الأفراد ضمن الجماعات باعتبارها "قواعد السلوك التي تحدد كيفية تعامل الإنسان مع الأشياء المقدسة و كذلك مع أمثاله" (Maisonneuve, J. 1988 :97) وفي نفس هذا الاتجاه يذهب دوركايم حتى يتكلم حين الوظيفة .....للممارسات الطقوسية حيث أنها تقوي الروابط التي تصل المؤمن بالخالق وفي نفس الوقت تقوي الروابط بين الفرد والمجتمع " المسألة هنا ليست ممارسة ضغط فيزيقي على القوى العمياء الخيالية لكن الوصول إلى العقول، لإنعاشها و تقنينها" (Durkheim,1924 :97) .

وظائف الطقوس:

زيادة على المظاهر الخارجية للطقوس و التي يمكن ملاحظتها مثل عملية التكرار والحفاظ على القواعد نفسها... مهم جدا إيجاد وظائفها والإلمام بمعانيها ،بالرجوع دائما إلى المناخ الذي يؤدي فيه الطقس والطريقة التي يعيش بها الفاعلون الحدث و بمعنى آخر على الباحث الرجوع إلى مجموعة المواقف والأحاسيس والتمثلات التي يعبر عنها الطقس و يعمل على تنظيمها.

من المعروف أن الطقوس تسعى إلى تحقيق العناية الإلهية على الأرض والخصوبة ... لكن أكثر من ذلك يحدده (Maisonneuve, J. 1998) في ثلاثة وظائف رئيسية ليست مستقلة عن بعضها البعض بل مرتبطة و متداخلة فيما بينها . هذا و يكون لدى بعض الأفراد و الجماعات وعي بها وتبقى لاشعورية لدى البعض الآخر.

- وظيفة التحكم في كل ما يتسم بعدم الثبات و المحاولة الدائمة للحيازة على الثقة اللازمة ضد القلق الوجودي الذي لا تخلو منه حياة الإنسان. تعبر الممارسات الطقسية أحسن تعبير عن كل تلك التساؤلات التي يطرحها الإنسان إزاء العالم وإزاء وجوده كجسد في العالم و كروح وفكر يتخبط أحيانا في صراع مرير مع متطلبات الجسد . كذلك تمكن الطقوس الإنسان من ضبط العاطفة القوية، لأن تعرضه لمختلف التجارب في الحياة يجعله يضمر أحاسيس مختلفة و أحيانا متناقضة مثل الحقد والحب، والخوف والحزن والأمل ...كل هذا يحتاج إلى تقنين و إلى تحديد إطار معين لا تخرج عن نطاقه هذه الأحاسيس وإلا عمت الفوضى.

طرق التحكم هذه عن طريق الطقوس تقوم في الأغلب على الرموز مثلا في تقديس الأماكن والفترات الزمنية أو مراحل الحياة بفضل الاحتفالات مثلا بأعياد رأس السنة وطقوس العبور والزواج.

- وظيفة التوسط مع الإلهي (Le médiation avec le divin) أو مع قوى خفية أخرى .

يعود الإنسان دائما إلى العمليات الرمزية حينما يجد نفسه أمام شيء يفوق تصوره و قدراته في التحكم فيه. هذه العمليات الرمزية تكون عبارة عن حركات معينة و كلمات أو جمل ذات دلالات خاصة لا يفهمها ولا يؤمن بها إلا المعنيون بالأمر، هكذا تكون الصلوات و الابتهالات، و التضرعات، و الصوم...

وظيفة التواصل و الضبط الاجتماعي (الطقس ضابط اجتماعي) تأخذ وظيفة التواصل و الضبط الاجتماعي طابعا خاصا ضمن وظائف الطقس الديني ذلك لأنها أقل الوظائف تجليا و ظهور . يشعر بها ويعيها القليل من الناس.

كل مجتمع وكل مجموعة إنسانية إلا و تعمل على الحفاظ على وحدتها و بالتالي وجودها فالإحساس بالانتماء إلى الجماعة ما يمن الإنسان بالقوة والشعور بالأمان و الاطمئنان بالقرب من أناس آخرين يتقاسم معهم أحاسيس الانتماء الذي يسميه البعض بالهوية الجماعية.

فالممارسة الطقسية ضرورية للحفاظ على المعتقدات التي تؤسس لوجود الجماعة و تحافظ على تلاحمها . فكل تلك التجمعات والاحتفالات وتبادلات الهدايا و التحيات... تخلق جوا يجعل ممكنا وممتعا العيش معا كما تعيد تكريس الرباط الاجتماعي (Le lien social) في كل مرة بحكم أن الطقس يتكرر باستمرار.

كما تعيد الطقوس إحياء القيم والمبادئ التي تعتبر المكبح الأخلاقي في أعين أعضاء الجماعة .يقول (Maisonneuve1988 , :13-14) " عن طريق كل الأدوار، تظهر الطقوسية على طرفي الطبيعة والثقافة، هو تقف بين الحسي والروحي، فهي تحقق الضبط الاجتماعي والأخلاقي ولكن كذلك إشباع الرغبات ..." فالكل يغترف بإنسانية و عالمية الطقس كتعبير ديني ثقافي .ففي دراسة حول الطقوس كأفعال مؤسسة يحاول بورديو (P. Bourdieu, 1982) عن طريق بحث كان قد قدمه (van Gennep,1909) حول طقوس المرور، أن يشرح الجانب التمييزي Le coté distinctif بين من يخضعون للطقس و من لا ولن يخضعوا له لأنهم غير معنيين به أي أنهم ينتمون إلى جماعة أخرى وبالتالي إلى ثقافة أخرى .ويعطي مثال الختان.

إن مرحله قبل الخضوع إلى عملية الختان وبعد مرحلة الخضوع لها، مختلفتان جدا وتحملان دلالات عميقة ومهمة فمن جهة :

يخلق التمييز: - بين من ختن ومن لم يختن بعد.

- بين المختون وبين الغير مختون وذلك بطبيعة الحال لأنه ينتمي إلى المجموعة.

- ين من يختن ومن هو ليس معني بالأمر رغم انتمائه إلى الجماعة وهنا يكون التمييز بين الذكر والأنثى وعليه يكرس التمييز الواضح والنهائي بين النوعين (Les

genres) ويربط بورديو كل هذا بشرط مهم جدا هو أن الطقوسية كفعل، لا تنجح إلا إذا ضمنت اعتقاد و إيمان الكل بها حيث يقول باحثا الفرنسي " إيمان المجتمع هو شرط فعالية الطقوسية" (P. Bourdieu, 1982 : 109).

ـ وفي النهاية، رغم نظرة البعض في وقتنا هذا إلى عدم نفعية الطقوس وإلى أركاييكيتها وفولكلوريتها، إلا أن الملاحظ يفهم أنها الطريقة الأكثر جدوى في الإبقاء على التضامن والتلاحم الاجتماعيين، أنها إحدى السبل الأكثر إنسانية في تحقيق التواصل بين الناس.

المراجع:

ـ القرآن

ـ هشام جعيط ، في السيرة المحمدية ، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار

- P.Bourdieu,les rites comme actes d'institution, in, actes de la recherche en sciences sociales,1982.
- E.Durkheim, les formes élémentaires de la vie religieuse, PUP, 1960 (4éd)
- A. Van Gennep, les rites de passage,Paris,Novrry,1909.
- Que sais- je, les conduites rituelles, J.Maisonneuve,PUF , 1988.
- P.Martuccelli, sociologie de la modernité, L'itinéraire du XXème, Edition Gallimard, 1999.
- E.Renan, Etudes d'histoire religieuse édition, Gallimard, 1992.
- G.Simmel ,la religion, trad, Philippé Ivernal, Paris, 1998.
- G.Vinsonneau, L'identité culturelle, Armand Colin, VUEF, Paris, 2002.
- M. Weber, sociologie des religions, textes réunis et traduits par Jean – Pierre Grossein, Paris, Gallimard ,1996.